

أبو القاسم الشابي فى ذكرى رحيله الخمسين

فى التاسع من شهر أكتوبر ١٩٨٤م حلت الذكرى الخمسون لرحيل الشاعر أبى القاسم الشابى وهى مناسبة جديرة بأن تثير فىنا الاهتمام من جديد بدراسة شعر هذا الشاعر الذى أثبتت السنوات التى مرت بعد رحيله والتى كانت بمثابة اختبار حاسم لأصالته الشعرية أنه واحد من أبرز العبقرىات الشعرية العربية فى العصر الحديث. وكثيرون من الشعراء ينالون فى حياتهم قدرا من الشهرة أو الحضور الأدبى إما بسبب شاعريتهم الفريدة أو بسبب نفوذهم إن كان لهم نفوذ أو ذكائهم الاجتماعى وبعد أن تطوى صفحة حياتهم وتضعف المؤثرات التى لا تنبع من صميم التقدير الأدبى تنحسر عن أكثرهم هالة البريق ويواجهون التاريخ بالقوة التى يمنحها لهم عملهم ويصبح شعرهم وحده شهادتهم التاريخية أمام الأجيال التى لها حرية أن تقبل أو ترفض هذا الشعر وإذا كان النقد الأدبى كثيرا ما يقوم بإصدار أحكام عامة وزائفة متأثرا بعوامل كثيرة على شعر المرموقين من الشعراء فإن الرؤية النقدية هى الأخرى عرضة للنيل منها كلما تقدم الزمن وتطورت المفاهيم وتغيرت الأوضاع وبهذا نستطيع أن نقول بأن العنصر النهائى فى مجال الحكم على الشاعر هو شعره فقط وبهذا المعيار يتألق أبو القاسم الشابى فى سماء حياتنا الثقافية كصوت شعرى وصل إلى قمة الصدق مع نفسه ومع عصره

وبالأخص مع هموم أمته . وأبو القاسم الشابي واحد من هؤلاء العباقرة من الشعراء الذين قدر لهم أن يلاقوا حتفهم في عنفوان الشباب مثل طرفه بن العبد وأبي فراس الحمداني وشيلى وكيّس وببيرون وروبرت بروك وبدر شاكر السياب وربما كانت أقدارهم قد زودتهم بالحظ الذى يمكنهم من حفر أسمائهم فى سجل الخلود قبل أن يحصدهم الموت فيجنبهم الفشل أو المرارة أو الصمت الكريه . وإذا كان لنا أن نلقى نظرة على حياة أبى القاسم الشابي فإننا نفعّل ذلك لكى نفهم شعره الذى هو ثمرة حلوة لحياة بالغة المرارة .

ولد أبو القاسم الشابي عام ١٩٠٩م فى مدينة «توزر» بتونس فى أسرة متوسطة وكان أبوه أحد علماء الأزهر الشريف ثم عمل قاضيا شرعيا وكان تقيا واعيا عطوفا على أهل بيته وتحدث أبو القاسم الشابي عن أثر أبيه فى حياته ، فقال عنه : «إنه أفهمنى معانى الرحمة والحنان وعلمنى أن الحق خير ما فى العالم وأقدس ما فى الوجود» ويبدو أن هذه التربية الأخلاقية قد زرعت فى نفس الشاعر وشعره فضائل الاهتمام بالآخرين والإحساس بهمومهم ومشاكلهم ، وفى عام ١٩٢٠م رحل أبو القاسم الشابي إلى تونس العاصمة للدراسة فى جامع الزيتونة حيث أولع بالشعر والأدب العربى واستطاع فى وقت مبكر أن يحصل ثقافة كبيرة فى هذا المجال وتفتحت بواكيره الشعرية تعبيرا عن موهبة شعرية كامنة . وكان شديد الولع بالقراءة والاتصال بالأدباء فى المشرق العربى مهتما بالإصلاح الأدبى والاجتماعى حريصا على التجديد معتزا فى الوقت نفسه بتراثه العربى القديم .

وكان حماسه لهذا التراث هو الذى جعله يكتب محاضراته «الخيال الشعري عند العرب» والتي صدرت فى كتاب عام ١٩٢٨م ولكن الأيام تعاجله وهو فى غمرة إعداد نفسه لعطاء أدبى طويل بالمصائب، وفى عام ١٩٢٩م توفى والده الذى كان يحبه حبا شديدا واضطر أن يعود إلى مسقط رأسه ليرعى أسرته التى أصبح هو عائلها الوحيد ولكن الأيام كانت لا تزال تصوب إليه سهامها فقد أصيب بعد وفاة أبيه بداء الصدر ربما بسبب الحزن الشديد. ولزم الشاعر قريته لا يجد سوى الشعر طبيبا ورفيقا ورسالة حياة وعكف على إعداد ديوانه للنشر فى القاهرة ولكن الموت أنهى هذه الحياة التى كان الألم محورها ونارها التى اندلعت فى كثير من القصائد فأحالت الحياة بعده إلى نور من الوعي الشامل بالقيم السامية التى عاش لها أبو القاسم الشابي وهى الحرية والجمال والأخوة والإنسانية والعدل وتوفى الشاعر العبقري فى ٩ أكتوبر ١٩٣٤م وإذا كانت الحياة قد غادرت جسمه الهزيل الشاحب فقد انتقلت هذه الحياة إلى شعره لتسكنه إلى الأبد.

شعره

لم يخلف أبو القاسم الشابي سوى ديوان «أغاني الحياة» الذى يضم إحدى وتسعين قصيدة ومقطوعة تكاد كلها أن تكون من نسيج فنى واحد لأنها كتبت فى فترة قصيرة فلم تتح له الحياة أن يمر بمراحل فنية متعددة. وهذه القصائد والمقطوعات يتوزعها الاحساس العميق بالألم والشقاء الإنسانى الذى كان الشاعر يحيا فى أتونه الملتهب وكذلك الإحساس بالجمال كما يتبدى فى الطبيعة والمرأة والطفولة ووطنية الشاعر الغامرة وحزنه على أمته التى يهينها المستعمر تبدو من معالم

هذا الديوان فقد ثارت في نفسه الحمية والإحساس بضرورة الحرية لقومه فوقف يدعوهم إلى اليقظة محاولاً أن يطلعهم على قوتهم التي يملكونها ولا يعرفونها وهو يهتف فيهم:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

ودعاهم في هذه القصيدة إلى حب الحياة والطموح والأمل. أما موقف الشاعر من الحياة فهو يتسم برومانسية غامرة تفيض من نفسه القصائد لا لكي تحمل مواجع الشاعر الفردية فقط، بل هو يضمنها رؤية عميقة للوجود كله يقول عن الحياة:

إن هذى الحياة قيثارة الله وأهل الحياة مثل اللحن
نغم يستبى المشاعر كالسحر وصوت يخل بالتلحين
والليالي مغاور تلحد للحن وتقضى على الصدى المسكين

ويبدو أن إحساسه بالضعف قد جعله ينظر إلى القوة باعتبارها من القيم الأساسية للانتصار في الحياة سواء على المستوى الفردى أو المستوى القومى يقول فى قصيدة «نظرة فى الحياة»:

إن الحياة صراع فيها الضعيف يداس
ما فاز فى ماضيها إلا شديد المراس

ثم يقول عن الضعف وأظهر صورة ضعف الإرادة الذى يقضى على الحياة نفسها:

ضعف العزيمة لحد فى سكينته تقضى الحياة بناه اليأس والوجل

وفى العزيمة قوات مسخرة يخر دون مداها الشامخ الجبل
والناس شخصان ذا يسعى به قدم من القنوط وذا يسعى به الأمل

هو من حزب الأمل إذن يجسد القوة التى تسعى من أجل خير الحياة
وليست القوة الغاشمة ويأتى الحب فى مقدمة القيم التى تشكل موقف
الشاعر من الحياة يقول فى قصيدة «الحب» :

الحب شعلة نور ساحر هبطت من السماء فكانت ساطع الفلق
ومزقت عن جفون الدهر أغشية وعن وجوه الليالى برقع الغسق
الحب روح إلهى مجنحة أيامه بضياء الفجر والشفق
يطوف فى هذه الدنيا فيجعلها نجما جميلا ضوكا جد مؤتلق
لولاه ما سمعت فى الكون أغنية ولا تألف فى الدنيا بنو أفق
الحب جدول خمر من تذوقه خاض الجحيم ولم يشفق من الحرق
الحب غاية آمال الحياة فما خوفى إذا ضمنى قبرى؟ وما فرقى؟

وإذا كان الحب هو الشعور العميق بجمال الحياة فإن الجمال فى
شعر أبى القاسم الشابى يظل قضية أكبر من الحب. ومن هنا فهو يلتزمه
لدى المرأة التى لا تمثل فى شعره كيانا إنسانيا واقعيًا بل تمثل له كما
تمثل لدى كل الشعراء الرومانسيين عالما من الكمال العاطفى والوجدانى
يكاد يكون صورة للحياة والوجود تجلياتها فى الطبيعة والمجتمع والنفس
الإنسانية والروح المحلقة ومن هذا المنطلق نفهم أبعاد تجربته الفريدة فى
قصيدة «صلوات فى هيكल الحب». فالقصيدة فى الواقع صورة لمظاهر
الجمال كما تنعكس على نفس الشاعر من ناحية وكما تتبدى فى الواقع
المختلط بعناصر كثيرة من ناحية أخرى. فهى أقرب إلى فن الوصف

منها إلى فن الغزل. لقد حول هذه المرأة الجميلة إلى أحد ظواهر الطبيعة الخارقة في جمالها حتى لقد احتوت الطبيعة بدلا من أن تحتويها الطبيعة. وهي تثير في النفس قوة المفهوم الرومانسى للجمال. فالجمال عند الرومانسى ليس عنصرا في الطبيعة أو في الإنسان وإنما الجمال قيمة مطلقة تشمل الوجود كله وتتجسد أول ما تتجسد في المرأة التي هي أقرب إلى الحلم والمثال منها إلى الواقع ولهذا فالقصيدة مجموعة من التراكم الكمي الكثيف يصور المرأة كما تتبدى فيما حولها من طبيعة وقيم. وهي تجسيد بالغ الإثارة للعالم الذي كان ينشده أبو القاسم الشابي أو كان يحلم به ولنقل بطريقة واضحة أن قصيدة «صلوات في هيكل الحب» هي الفردوس المفقود للشاعر فهو يبني مدينة في صورة امرأة أو امرأة في شكل مدينة لعله يخلص ويخلص العالم كله من أحزانه وعذابه.

لهذا نرى صورة الشعرية المجسدة لمظاهر جمال هذه المرأة في معظمها تدل على قيم أكثر تجاوزا لعالم الواقع. فهو يبدأ بالصور المعنوية وكأنه لا يتحدث عن امرأة بقدر ما يتحدث عن معبد من معابد الجمال يقول:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد

وحتى الصور الحسية مثل السماء الضحوك والليلية القمر والورد وابتسام الوليد والطهارة والرقّة والقداسة هي كلها رموز لعالم أكثر منها رموزا لامرأة. ولنتجه مباشرة إلى صورة المرأة - العالم - في هذه القصيدة كما يصورها الشاعر بصراحة مباشرة.

يقول أبو القاسم الشابي:

أنت.. أنت الحياة فى قدسها السامى وفى سحرها الشجى الفريد
أنت.. أنت الحياة فى رقة الفجر وفى رونق الربيع الوليد
أنت.. أنت الحياة كل أوان فى رواء من الشباب جديد
أنت.. أنت الحياة فىك وفى عينيك آيات سحرها الممدود
أنت دنيا الأناشيد والأحلام والسحر والخيال المديد
أنت فوق الخيال والشعر والفن وفوق النهى وفوق الحدود
أنت قدسى ومعبدى وصباحى وربيعى ونشوتى وخلودى

وهذه صورة رومانسية الوجدان أقرب إلى وجدان الصوفى الذى تعلق
بالمطلق وقد كانت حياة أبى القاسم الشابى ترشحه لهذا المطلق لأنها
كانت مكتظة بتفاصيل الألم فأراد لها النجاة عن طريق الجمال المطلق
والجمال فى هذه القصيدة ليس معناه الانسجام العضوى والنفسى والروحى
للكائن أو الطبيعة وإنما الجمال هنا جماع القيم كلها من طهارة وخلود
وقداسة وسعادة.. فالشاعر يرى أن الجمال ليس إلا المظهر الحسى لكل
ما هو خير للإنسان وللحياة. فالسعادة جميلة والخلود جميل والطهارة
جميلة. بمعنى أن صفة الجمال هى موجز لكل الصفات الطيبة فى الحياة.
هذا هو جوهر موقف أبى القاسم الشابى من الوجود وهو يلتقى فيه
مع كبار الشعراء الرومانسيين فى العالم كله وهو سر عبقريته ، فقد
استطاع أن ينفذ من الخاص فى حياته إلى العام فى الحياة كلها من
الألم إلى الحرية ومن الحزن إلى الجمال المطلق ومن الشقاء إلى الخلود.
ولا ينتهى الحديث عن عالمه الشعرى المتدفق ولكن حسبنا فى هذه
المناسبة أن نشير إلى هذا العالم المثير الفياض بالألم والجمال.